Studies In Spirituality - Weekly Torah Portions by Rabbi Lord Jonathan Sacks zt"l

في رِحاب التّوراة

دِراساتٌ وحِواراتٌ روحانيّة مُعمّقة في النّصوصِ التّوراتيّة الأسبوعيّة مع الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

Jonathan Sacks
THE RABBI SACKS LEGACY

The Original text in English and translations to other languages can be found here:
Covenant & Conversation | Bo | The Spiritual Child | The Rabbi Sacks Legacy

"بوا" هو النصّ الأسبوعي الثالث من كتاب "شموت" (سِفر الخروج). ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المَقطع العاشر وينتهي بالآية السادسة عشرة من المقطع الثالث عشر

الابنُ الرّوحيّ

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

نشر الكاتبُ الأمريكي المعروف بروس فيلر كتاباً يعتبرُ من أكثر الكتب مبيعاً أطلق عليه اسم "أسرار العائلات السعيدة" (*The Secrets of Happy Families*) [1]، وهو كتابٌ مُذهلٌ بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حيث يستندُ في طرحه إلى مجالات بحثٍ ودراساتٍ ضخمة مثل مجال حلّ الصراعات وحلّ المُشكلات وبِناء الفريق وغيرها، وذلك حتى يُثبِتَ للأفراد إمكانية استخدام التقنيات والمهارات الإدارية في المنزل من أجل الحفاظ على تماسك ووحدة العائلة بشكل يمنحُ المساحة لأفرادها للنموّ والتطوّر.

وفي ختام الكتاب يطرحُ بروس فيلر نُقطة لم تكن متوقّعة أبداً، لكنها في الوقت نفسه في غاية الأهمية، حيث يقول: إن أكبَر وأهمّ عمل يُمكنك القيام به من أجل عائلتك هو في الحقيقة أكثرُ الأعمال بساطةً: عَليك أن تَبنِيَ حِكايةً تخصُّ عائِلتَك أنتَ بالذات". ويُتابع مُسهِباً حول هذه النقطة مُقتبساً من نتائج إحدى الدراسات التي أجرتها جامعة إموري والتي أظهرت بأنهُ كلّما تعرّفَ الأبناءُ على حِكاية وقصّة عائلتهم، "كُلّما كان لديهم شعورٌ أكبرُ بالتحكّم والسّيطرة على مناحي حياتهم، وقدرٌ أكبر من تحقيق الذات، وإيمانٌ أكبرُ بالاتّجاه الذي تسيرُ عليه العائلة". [2]

إنّ الحكاية الخاصّة بالعائلة تُساهمُ إلى حدٍّ كبيرٍ في خلق حالة من الترابط بين أفرادها برابطٍ يَرقى إلى ما هو أبعد من حدود الأفراد أنفسهم، كما ويساعدهم ذلك على خلقِ رابطٍ منطقيّ يُمكّنهم من إدراك سبب وجودهم في هذا العالم الموجودِ قبل أن يأتوا إليه، وهذا بحدّ ذاتهِ أمرٌ يمنحهُم نقطة البداية لتشكيل هويّتهم على أساس مَتين. إن الحِكاية الخاصة بالعائلة تجعل كُل فرد من أفرادها يقول بمُنتهى الثقة: هذا أنا، وهذه هيَ حِكايَتي التي أعتَبِرُ نفسيَ جُزءاً منها، وهؤلاء هم أهلي الذين كانوا هُنا قبلَ أن أولدَ من صُلبهِم، وهذه هي الجذور الضاربة في عُمق الأرض التي ستجعلني أنبَثِقُ منها كجِذعٍ باسقٍ مُمتدٍ نحو السماء.

ولو تتبعنا ما تذكرهُ التوراة فإننا لن نجدَ أي جُزء منها يؤكّد على تلك الفكرة مثل قصة موشيه/موسى في هذا النصّ الأسبوعي. وخلال أحداث القصة فإن الآفة العاشرة كانت على وشك أن تضرب أرض مصر، وموشيه يعلمُ تمام المعرفة بأن هذه هي الآفة الأخيرة، وهوَ يعلم أيضاً أن فرعون لَن يسمح لبني إسرائيل بالخروج فحسب، بل سيدفعهُم للخروج بأسرع وقت مُمكن بعد أن تحلّ الآفة العاشرة بأرض مصر. بالتالي، وتبعاً لأوامر الله عزّ وجل، يبدأ موشيه بتحضير بني يسرائيل للمضيّ نحو الحُرّية، لكنه يقوم بذلك بأسلوب فريدٍ ومُميّز جداً، فهو لا يُكلّمهم عن الانعتاقِ من الحرية ولا يحدّثهم عن كسر سلاسل العبودية، ولا يحدّثهم حتى عن الرحلة الشاقّة التي تنتظرهم في الصحراء، ولا يحاول رفع معنوياتهم من خلال إخبارهم عن أرض الميعاد التي وعدَ الله عزّ وجل بها أفرهام/إبراهيم، ويتسحق/إسحق، ويعقوف/يعقوب، تلك الأرضُ التي تفيضُ لبناً وعسلاً. إنّهُ يحدّثهم فقط عن الأبناء، وهُنا يُكرّر موشيه الأسلوب ذاته ثلاث مراتٍ في النصّ التوراتي نفسه، حيث يقول في سِفر الخروج في المقطع الثاني عشر في الآيتين 26 و27: "***وإذا قال لكُم بَنوكُم ما هذه الصّنعة. قولوا هو ذبحُ إرثاء للهِ، كما أرثى لبيوتِ بني يسرائيل بمصر، إذ صدمَ المصريين وخلّصَ بيوتَنا***"، ثم يُعاود تكرار الأسلوب نفسه في المقطع الثالث عشر في الآية الثامنة حين قال: "***وأخبر ابنَك، في ذلك اليوم قائلاً: هذا لأجل ما صنَع اللهُ لي في خُروجيَ من مصر***"، وفي الآية الرابعة عشر من نفس المقطع حين قال: "***وإذا سألك ابنُك غداً قائِلاً: ما هذا؟ فقُل له بشدّة يدٍ أخرجنا اللهُ من مصرَ***".

وما قام به موشيه هو أمر ينافي توقّعاتنا في قصّة كهذه، فبدلاً من أن يُحدِّثهم عن الصباح الباكر، بدأ يُحدِّثُهم عن المُستقبل البعيد، وبدلاً من الاحتفال بتلك اللحظة العظيمة التي سيتحرّرون فيها من عبودية فرعون، ظلّ يوكّدُ لهم على أهمية أن تكون تلكَ اللحظة جُزءاً من الذاكرة الجماعية لبني يسرائيل حتى الأزل. فعلياً، ما أراده موشيه هو أن تتناقل الأجيال اليهوديّة هذه الحِكاية وتمرّرها من جيلٍ لآخر، لقد أراد للآباء اليهودِ أن يكونوا آباءَ ومُعلّمين في الوقت نفسه، وأراد لأبناء اليهودِ أن يكونوا حُرّاساً على إرثِ الماضي من أجل حماية مُستقبلهم. وبإلهامٍ إلهيّ من الله عزّ وجل، عَلَّم موشيه بني يسرائيل درساً في مُنتهى الأهمية، وهو الدرسُ ذاتهُ الذي أكّدَت عليه الثقافة الصينية لكن بطريقة مختلفة، فهنالك مثل صيني يقول: إذا أردت أن تَزرعَ لِعامٍ فازرع أُرُزّاً، وإذا أردت أن تَزرَع لِعَقدٍ فازرع شجرةً، وإذا أردتَ أن تَزرَعَ لِقَرنٍ فعَلِّم طِفلاً.

لقد عُرِفَ عن اليهودِ تاريخياً بأنهم يَضعون التعليم على رأس سُلّم أولوياتهم، وفي الوقت الذي كان الآخرون يُشيّدونَ فيه قِلاعاً وقصوراً، كان اليهودُ يُدشّنونَ مدارسَ ودوراً لدراسة وتعليم التّوراة. لهذا حقّقَ اليهودُ إنجازاتٍ عظيمة يَفخرون بها على المُستوى الجماعي: فاليهودُ كانوا يَقرأون نُصوصهم الدينية في وقتٍ كان فيه العالم غارقاً في بَراثن الجَهل، أضف إلى ذلك السجلّ اليهوديّ الحافِل بالإنجازات العلمية والفكرية والعدد الكبير من اليهود الذين كان لهم إسهامات عظيمة في تشكيل وصياغة العقلية الإنسانية المعاصرة، هذا عدا عن سُمعة العقليّة اليهودية المُشرّفة التي كانَت موضع احترام في بعض الأوقات وموضع خوفٍ في أوقات أُخرى، والتي يسخرُ منها البعضُ لأنها عقلية تقوم على الفِطنة والجدال والنقاش وتتصف بمقدرتِها على رؤية كافة جوانب الخلاف أيا كان شكله.

في الوقت نفسه، لم تكُن تلك هيَ الرسالة التي أراد موشيه إيصالها، فالله عزّ وجلّ لم يأمرنا قائلاً بأن عليكُم أيها اليهودُ أن تحصدوا جائزة نوبِل! بل ما أرادهُ فِعلاً هو أن نقوم بتعليم حِكاية الخروج من أرض مصر لأبنائنا، وأن نُساعِدهم في فهم ذاتهم وهويّتهم ومن أين جاؤُوا وما الذي جعلَ آباءهم وأجدادهم مُميّزين عن باقي الأمم والشعوب، كما أرادنا أن نُعلمهم عن تلك الأحداث التاريخية التي تشكّلت بسببها حياتهم وأحلامهم. لقد أرادنا أن نمنحَ أبناءنا هويّة مُميزة من خِلال تَحويل التاريخ إلى ذاكرةٍ حيّة، بحيث تُصبِح تلك الذاكرة بحدّ ذاتِها مسؤولية مُلقاة على عاتق جميع الأجيال اليهودية. كما لم يُطلب من اليهودِ أن يكونوا شعباً من المُثقّفين والمفكرين بقدر ما كان مَطلوباً منهم أن يكونوا أبطالاً في قصّة الخلاص والدراما المرتبطة بها، تماماً مثلما هو مطلوبٌ منهُم أن يُلبّوا النّداءَ الإلهي لجلبِ البركات والنِّعَمِ إلى هذا العالم، وذلك من خلال أسلوب حياتهم وطريقة تقديسهم للحياة.

وخلال عصرنا الحالي، فإننا كالكثير من البشر في العالم الغربيّ نتجاهلُ هذا العُنصر الروحيّ العميق في العملية التعليمية، لهذا يُعتبرُ كتابُ "الابنُ الروحيّ" (*The Spiritual Child*)[3] والذي نشرته الباحثة الأمريكية ليسا ميلر مؤخراً واحداً من الأمور التي تُذكرنا بهذه الحقيقة المَنسية. والبروفيسورة ميلر هي أستاذة وباحثة في مجالي علم النفس والتعليم في جامعة كولومبيا الأمريكية، كما أنها تُشارك في تحرير المجلة الدورية التي تحمل اسم "الروحانية في التطبيق العملي" (*Spirituality in Clinical Practice*). والمتصفّحُ لكتابها سيجدُ أنه لا يتحدّثُ عن الديانة اليهودية ولا عن أي ديانة أخرى، بل يتحدث تحديداً عن أهمية تشجيع وتحفيزِ الآباء للجانِب الروحيّ لدى أبنائِهم.

إن الأطفال بطبيعتهم يمتلِكون جانِباً روحانياً، فهُم في حالة ذهول دائِمة من ضخامة هذا الكون ورَحابته ومكاننا فيه. إنهم يتمتّعون بقدرٍ كبير من الدّهشة التي نشعرُ بها أثناء قراءتنا لبعض الآيات العظيمة في سِفر المزامير. إنهم يعشقون القصص والأغاني والعادات والتقاليد والطقوس المُتكرّرة، كما أنهم يعشقون الأسلوب والطريقة التي توظّف بها تلك العادات والتقاليد كلّاً من الوقتِ والعلاقاتِ وأخلاقيات الحياة.

في الوقت نفسه، فإن الشُّكوكيّين والمُلحدين يسخرون دوماً من وصفِ الدين على أنه الطريقة التي ينظرُ بها الطّفلُ إلى العالم، لكن سُخريتهم تلك هي بمثابة تأكيد على هذا الأمر البديهي، وهو أنّ المنظور الذي ينظرُ به الطفل إلى العالم هو منظورٌ ديني أساسهُ الفطرة والغريزة التي خُلِق عليها. وحين نُبعِدُ أي طِفلٍ عن تلك الفطرة عبرَ الاستهزاء بالدين وإبعاده عن العادات والتقاليد وجعلهِ يُركّز فقط على إنجازه الأكاديميّ وغيره من أشكال النجاح المادّي، فإن تصرفاتنا تلكَ ستَجعلهُ محروماً من أهم مُقوّماتِ السلامة العاطفية والنفسية للإنسان.

وهذا ما توضّحه الأستاذة ليسا ميلر من خلال أدلة مُذهلةٍ يثُبتها البحث العلمي ذاته، إذ بينت نتائجُ البحثِ بأنّ الأطفال الذين يَنشؤونَ ويترعرعون في بيوت تسودها الأجواء الروحانيّة، يكونون أقلّ عُرضة للإصابة بالاكتئاب والغرق في مُستنقع المخدّرات والكحول، كما أنهم أقل عُنفاً وعدوانيّة من غيرهم من الأطفال، وأكثر إحساساً بحميمة وعاطفيّة العلاقات الجنسية. كما وتلعبُ الروحانيّة دوراً بارزاً في تحقيق الصحّة النفسية والجسدية للأطفال، وهي بُعدٌ من الأبعادِ التي تُشكّل شخصيتهم وهويتهم وغايتهم من الحياة خلال مرحلة المراهقة والبلوغ. كما أن سنوات المراهقة عادة ما تتخذُ طابع البحث في خضمّ العالم الروحاني. وعندما تكون هناك قواسمُ مُشتركة تجمع بين جيل الأبناء وجيل الآباء والأجداد وتربطهم بما هو أكبر من ذلك، فإن هذا سيولّد قوّة داخليّة عظيمة في داخل الأبناء.

ولو فكرنا في الأمر ملياً لوجدنا أن العلاقة التي تربطُ الأبناء بالآباء هي علاقةٌ تُشبهُ علاقتَنا بالله عزّ وجل، خاصة من منظور الديانة اليهودية، لهذا نجِدُ موشيه يُشدّدُ على أهمية **طرحِ الأسئلة** في أي عملية تعليمية من خلال تكراره لعبارة **"وإذا سألك ابنُك"**. كما أن طرح الأسئلة هي ميزة رئيسية تتسمّ بها طقوس وأجواء وجبة العشاء التي نتناولها ليلةَ عيد الفصح اليهودي، خاصة جُزئية "ما نِشتاناه" (تعني هذه العبارة "ما الذي تغيّر؟" أو "ما الذي يجعل هذه الليلة مختلفة عن غيرها من الليالي؟")، وهي جُزئية يتساءل من خلالها أبناؤنا عَمّا يُميّزُ ليلة الفِصح عن غيرها من الليالي والمناسبات.

إن الديانة اليهودية هي عقيدةٌ تقومُ أصلاً على أساس الجَدل والنقاشِ والمُحاجَجة وطرحِ الأسئلة، وعبر التاريخ اليهودي كانت الشخصيات اليهودية العظيمة تطرحُ الأسئلة على الله عزّ وجلّ، كما كان حاخامات المِشناه* والمِدراش** يتجادلون فيما بينهم ويختلفونَ في آرائهم ووجهات نظرهم مراراً وتكراراً. أما المُعتقدات المُتحجّرةُ التي لا تُشجّعُ أبنائها على طرحِ الأسئلة، فهي مُعتقداتٌ لا تربّي أبناءها على أن يكونوا جاهزين للتعامل مع تعقيدات الحياة. إن أحدَ أهم الأفكار التي تُميّز الديانة اليهودية هو حالةُ الحذرِ الشديد التي ذكرت بها التوراةَ الدّعاء اليهودي الذي نُطلق عليه اسم "شِمَع" (دُعاء اسمع يا بِسرائيل)، فهذه الفقرة من الدعاء: **"أَحِبّ اللهَ رَبَّكَ مُخلِصاً بقلبكَ ونفسِكَ ووجدانك"** قد جاءت قبل هذه الفقرة:

***ملاحظة توضيحية من المترجم:** كلمة مِشناه تَعني باللغة العبرية الدراسة من خلال التكرار ودراسة موضوع معين ومُراجعته. ويقصد بها اصطلاحاً أوّل مجموعة رئيسية مكتوبة للتقاليد والسير التوراتية الشفهية، وهي أول عمل رئيسي للنصوص الحاخامية. وتمت كتابة المشناه وتدقيقها وتنقيحها على يد الحاخام يهوداه هَنَسي في أرض يسرائيل بداية القرن الثالث بعد الميلاد، خلال حقبة زمنية شهدت اضطهاداً لليهود، ومرور الوقت خلال هذا الاضطهاد أدى إلى زيادة احتمالية اندثار السير والتقاليد التوراتية الشفهية التي تعود إلى عهد الهيكل اليهود الثاني (516 ق.م حتى 70م). وأغلب مُحتوى المشناه مكتوب بلغة عبرية خاصة بالمشناه، لكن بعضاً منها مكتوب باللغة الآرامية.

****مُلاحظة توضيحية من المترجم:** المِدراش هو مصطلحٌ يُشيرُ إلى التفاسيرُ اليهودية المُوسّعة للكتاب اليهوديّ المُقدس (التناخ)، بحيث تستندُ هذه التفاسير إلى نمطٍ حاخاميّ شائع الاستخدام في كتاب التلمود (التلمودُ هو النصّ المركزيّ في الحاخامية اليهودية ويعدّ المصدر الأساسي للديانة اليهودية وللشريعة اليهودية المعروفة باسم الهلاخاه). ومن ناحية لغويّة فإن كلمة مِدراش تَعني تفسيرَ النصّ بالنّص، كما تعني أيضاً الدّراسة، وهي مُشتقة من الجذر "دَ.ر.ش" في اللغة العبرية، والذي يحمل في طيّاته أكثر من معنى، منها البحث المُتأنّي والاستفسار والطلبُ، وتظهرُ اشتقاقاتُ كثيرة لهذا الفعل على نحو مُتكرر في الكتاب اليهودي المُقدس. كما أن التفاسير المِدراشية والقراءات الحاخامية للنصوص الدينية تهدفُ إلى البحثِ عن القيمة الموجودة في النصوص والكلمات والحروف أيضاً، وهي تعتمدُ التفاسير المِدراشية على أسلوب طرح الأسئلة حول النص الديني، وفي بعض الأحيان تُجيبُ على تلك الأسئلة، وفي أحيان أخرى تتركُ المجال مَفتوحاً أمام القارئ ليُجيب عنها بنفسه. والتفسيرُ المدراشي يُعد نهجاً يهودياً مُميزاً، فهو لا يُحاول فهمَ الكلمات الموجودة في النصّ الديني وما وراءه من أفكار فحسب، بل يذهب بعيداً ليتطرّقُ إلى ما هو غيرُ موجودٍ في الآية، أيّ كل حرف وكل كلمة لم تُذكَر في هذا النصّ. إن الأسلوب المدراشي يتضمّنُ تفسيراتٍ قديمة للتوراة المكتوبة والشفهية (القوانين والمناسك الدينية التي انتقلت بالمشافهة)، بالإضافة إلى الكتابات الحاخامية التي لا تتمحور حول القوانين (أغاداه) أو التشريعات الدينية اليهودية (الهلاخاه) التي تجسّدُ بالعادة تفسيراً مُكمّلاً لتفسير نصوصٍ معيّنة من الكتاب اليهوديّ المُقدس (التّناخ).

"واحكِها لِبَنيكَ"، وهذا الترتيب في الفقرتين لم يأت من فراغ، بل فيه حِكمة عظيمة، لأن الأبوّة تكون صالحة حين يرى الأبناءُ أن آباءهُم يُحبّون فِعلاً ما يقومونَ بتعليمه للأبناء.

بالتالي، وتبعاً لما يُظهرُ لنا هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة، فإن المشوار الطويل لبني يسرائيل نحو الحريّة لم يكن موضوعاً تاريخياً ولا سياسياً ولا متعلّقاً بالمعجزات، بقدر ما كان يُجسّد علاقةً تربطُ الآباء بأبنائهم. إنّها الحِكاية التي يرويها الآباء للأبناءِ من جيلٍ لآخر، إنّها الشعورُ بالحُضورِ الإلهيّ في حياتِنا، إنّها المساحةُ التي تُفسِحُها لنا من أجل الرقيّ والسموّ والدهشة والامتنان والتواضع والتعاطف والمحبّة والغُفران والرحمة، هذه القيم العظيمة التي تتجسّدُ في الطقوس والأغاني والصلوات التي نُردِّدها في عيد الفصح من كل عام. إن هذه الطُقوسَ والصلوات تَمنحُ أبناءَنا الثّقةَ والأملَ، كما أنها تمنحهُم شعوراً بالهويّة والانتماء إلى مكانٍ معيّن من هذا الكون الشاسع. ولا يُمكننا بِناءُ مُجتمعٍ سليم عندما تكون العواطف داخل العائلة غير سليمة أبداً، فهذا من شأنه أن يخلق جيلاً غاضِباً تملؤهُ الصراعات الداخليّة. إن الإيمان يبدأ فعلياً من العائلة، والأملُ يولدُ من كَنفِ المنزل الذي يسكنهُ كل واحدٍ منّا.

---

1. Bruce Feiler, The Secrets of Happy Families, New York, William Morrow, 2013.

2. نفس المصدر، لكن بروز فيلر لا يذكر المصدر. لقراءة المزيد انظر هذا المصدر:
Bohanek, Jennifer G., Kelly A. Marin, Robyn Fivush, and Marshall P. Duke. "Family Narrative Interaction and Children's Sense of Self ".*Family Process*.54-39 :(2006) 45.1

3. Miller, Lisa .*The Spiritual Child: The New Science on Parenting for Health and Lifelong Thriving* ,New York, St Martin's Press, 2015.

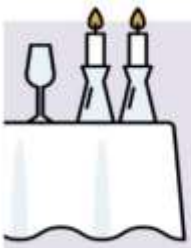

حَولَ مائِدةِ يومِ السَبتِ المُقَدَّسِ: أَسئِلةٌ لِلتَّأَمُلِ

1- هل تعرّفت على هويتك من مدرستك أم من عائلتك؟
2- برأيك لماذا تُشدّد الديانة اليهودية كثيراً على أهمية التربية والتعليم؟
3- برأيك ما هو أكثر أمرٍ يحتاجه الطفل من عملية التربية والتعليم التي يتلقاها على يدي والديه؟

● These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at **https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/bo/the-spiritual-child/**

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism*, *Bar Ilan University*